مصنّف "الأمثال الشعبية في الجزائر والمغرب"
لمحمّد بن شنب
دراسة في منهج التوثيق والجماليات اللغوية

د. نعيمة العقريب

جامعة مولود معمري- تيزي وزو

إنّ الأمثال الشعبية ممارسة لغوية جمالية متداولة في الموروث الثقافي الجزائري باعتبارها عنصرا مهمّا تستخدمه جميع فئات المجتمع حيث تعمل على توحيد الوجدان والطبائع والعادات، كما ينظر إليها من ناحية أخرى على إنّها وثيقة تاريخية واجتماعية هامة تمكننا من قراءة أخلاق المجتمع وعاداته وطرق تفكيره وفلسفته في الحياة، فهي تكشف عن لغة الجماعة واستعمالاتها اللهجية وأسلوب عيشها ونمط تفكيرها ومعاييرها الأخلاقية...الخ. ويشير الباحث المصري أحمد أمين إلى هذا الأمر في مؤلفه قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية حيث يقول: "أمثال كل أمة مصدر هام جدا للمؤرخ الأخلاقي والاجتماعي يستطيع كل منهما أن يعرف كثيرا من أخلاق الأمة وعاداتها وعقليتها ونظرتها إلى الحياة لأن الأمثال عادة وليدة البيئة التي نشأت منها" .[1]

وسنحاول في بحثنا أن نعرّف بمصنّف مهمّ مجهول من قبل الكثير من المثقّفين أنجزه العلاّمة الجزائري محمّد بن شنب حول الأمثال الشعبية إدراكا منه لأهميتها اللغوية وقيمتها الحضارية والفكرية، لأنّها ممارسة لغوية منتشرة بين مختلف فئات الناس تعكس تصوراتهم وفلسفتهم في الحياة ونمط معيشتهم ... الخ.

يعدّ العلاّمة محمّد بن شنب(*) من بين الشخصيات الثقافية الجزائرية المهمّة التي لم تنل إنتاجاتها – للأسف الشديد-الحظّ الكافي من الدرس والبحث والنشر والتحليل، فبالرّغم من موسوعية الرّجل وغزارة علمه إلاّ إنّه غُيّب من الدوائر العلمية وظل مجهولا من قبل الكثيرين لاسيّما من الجيل الجديد حتى النُخبة والمثقفين منهم.

لقد برز محمّد بن شنب كشخصية مثقفة موسوعية حيث اهتم بعدّة معارف نذكر منها: البلاغة والمنطق والتحقيق واللسانيات والأدب واللّغة...الخ وكذلك ألّم- من جهة أخرى- بعدّة لغات عالمية كالفرنسية والتركية والفارسية والألمانية...الخ، وكان الرّجل على اتصال بدوائر البحث العلمي الاستعماري والمؤسّسة الثقافية القومية حيث كان هناك صراع ثقافي حاد بين الثقافتين: الفرنسية والعربية، وقد أبلى ابن شنب بلاء حسنا حيث بذل جهودا طيبة ومضنية في البحث العلمي المتنوّع، وأبان عن مقاومة ثقافية للهيمنة الاستعمارية من خلال التركيز على إبراز التراث الثقافي والهوية الوطنية بمختلف أشكالها من خلال جملة من المؤلّفات والتحقيقات المتنوّعة نذكر منها:

- تحفة الأدب في ميزان أشعار العرب: كتاب في مجال علم العروض والقوافي
- عنوان الدراية في علماء بجاية لأبي العباس أحمد الغبريني
- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم التلمساني
- طبقات علوم إفريقية لأبي ذر الخشني مع ترجمة فرنسية

ترجم ابن شنب الكثير من الكتب التراثية إلى اللّغة الفرنسية مبرزا أهميّة هذه الإنتاجات الثقافية وغناها المعرفي، فقد كان الرّجل شغوفا بالمطالعة ومحبّا للعلم يقضي أوقات طويلة بمكتبته دون ملل أو ضجر

حيث يقول عنه عبد الرحمن الجيلالي:" وكان في حالة فراغه لا يبرح مكتبته الغنية ما لم يتفق لآخر غيره، وفيها من الكتب المخطوطة النادرة ومن عَلِم مرتبة صاحبها أدرك حقيقة منزلتها العالية" .[2]

لقد قدّم الرّجل أبحاثًا متنوعة بلغة المستعمر ذاته أوضح فيها الهُوية الثقافية المتميزة للشعب الجزائري والتي تختلف كليّة عن ثقافة المستعمِر - بكسر الميم- حيث أبرز لهم أننا نختلف عنهم ثقافيا حتى وإن حاولوا أن يدمجونا بالقوّة والاستيطان منذ بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1830، فرغم تبوّء الرّجل مناصب علمية هامّة إلا إنّه بقي متواضعا محافظا على شخصيته وهويته من خلال تمسكه بزيّه التقليدي الجزائري في مختلف المحافل العلمية، وهو ما جعل العلاّمة "محمّد كرد علي"(**) يقول عنه بإعجاب: «شاهدته يخطب بالفرنسية في مؤتمر المستشرقين وهو في لباسه الوطني: عمامة صفراء ضخمة، وزنار عريض، وسراويل عريضة مسترسلة، ومعطف من صنع بلاده ، فأخذت بسحر بيانه واتساعه في بحثه» [3]

لقد أدرك محمّد بن شنب أهميّة التراث الثقافي للأمة الجزائرية ودوره الكبير في الحفاظ على تماسكها واستمرارها، ولهذا التفت إلى التراث الشعبي باعتباره الوسيلة التي بقيت للجزائريين لنقل الخبرات ومحاربة سياسة الطمس والتغريب والتجهيل التي مارسها الإستدمار الفرنسي بعنف ووحشية لا نظير لهما، ولهذا اهتم بالعاميّة الجزائرية من خلال أبحاثه في علاقاتها بالتركية والفارسية وكذلك تتبعه لأصل ومعاني بعض المفردات العامية الجزائرية كالشاشية والتليس ...الخ.

أنجز العلاّمة محمّد بن أبي شنب مصنّفه الهام المتخصّص في الأمثال الشعبية الجزائرية والذي نشره بباريس عام 1907 في ثلاثة

أجزاء[4]، ويأتي هذا العمل في إطار الاهتمام والعناية بالأدب الشعبي الجزائري وتعريفه للآخرين، فقد لاحظ الرّجل أن معظم الأبحاث التي أنجزت في الأدب الشعبي الجزائري تغلب عليها النظرة الاستعمارية الاستعلائية المستمدة من المركزية الأوربية التي لا ترى في الأهالي الجزائريين إلا أولئك المتخلفين الهمج، ثم إن أغلب هذه الدراسات ارتبطت بنوايا استعمارية نفعية قصد الكشف عن سلوك الإنسان الجزائري وردود أفعاله حيث تركت السياسة الاستعمارية بصماتها بوضوح على اتجاهات البحث العلمي الذي تناول الثقافة الشعبية بالدراسة .[5]

وهكذا وجد ابن شنب كمّا من دراسات الأثنوغرافيين الفرنسيين مثل (ألكسندر جولي Joly Alexandre) و(جوزيف ديسبارمي J.Desparmet) و(هانوطو A. Hanoteau) و(روني باسي René Basset.) ولم يجد بدا من الرد عليها بطريقة علمية رصينة.

انبرى بن شنب لدراسة الأدب الشعبي من خلال مؤلفه الخاص بالأمثال الشعبية الجزائرية والمغربية بما يتناسب والإيديولوجية الوطنية ويتوافق مع منظومة النهضة العربية والإسلامية [6] فجمع في هذا المصنّف مدونة مهمة من الأمثال الشعبية الجزائرية والمغاربية التي تعبّر عن إبداع شعبي أصيل له قيمته الثقافية والحضارية الكبيرة والتي لا يمكن تجاهلها أو غض الطرف عنها كما إنّها تمثل في الوقت نفسه جهدا مهما للدارسين المهتمين بالإنتاج المعرفي في الجزائر والدول المغاربية بصفة عامة.

لاحظ محمّد بن أبي شنب إنّه ليس هناك أي عمل جامع حول الأمثال الشعبية الجزائرية إلا من بعض المحاولات التي قام بها بعض الفرنسيين المهتمين باللهجات العامية وتعليمها فوضعوا بعض الكتب البسيطة

وضمنوها بعض الأمثال الشعبية للأهالي الجزائريين ونذكر من هؤلاء: (ماكويل Machuel) و(دوما Dumas) و(ماريون Marion) و(ستوم Stumme) ....الخ، ومن الجزائريين: (مجدوب) ، (بن سديرة)...الخ.) إلا أن عمل بن شنب يبقى هو الأكثر إحاطة وتخصصا.

وقد اطّلع بن شنب على كل هذه الأعمال اطّلاعا وافيا، بل ويمكن القول إن مصنّفه كان بمثابة رد على مواقف بعض هؤلاء المستشرقين ممن كانوا يحاولون أن يحتقروا الإنتاجات الشعبية للأهالي الجزائريين ويقللوا من أهميتها، حيث يقول ابن شنب في مقدمة مصنّفه: « لهذا يجب أن لا نصدّق ما ذكره (شيربونو cherbonnau) بأن المحادثة عند العرب ما هي سوى تجميع لعبارات نمطية تلائم الظرف» [7].

إذن كان الرّجل على وعي تام بأهميّة الأمثال ووظيفتها في المجتمعات، حيث يقول في مقدمة مصنّفه عنها: "إنّها كما يقول العرب أنفسهم "المنارات التي تضيء الخُطب، إنّه بالاستعانة بمثل يتم إسكات ثرثار، وإنعاش محادثة، والتوليف بين القلوب، واجتناب الخطب الطويلة، وتوبيخ ضال، وتفنيد حجة، وإصلاح خطأ، والاستجابة لدعوة....إن الأمثال لا تستعمل في العادة إلا لكي تمنح قوة وطاقة أكثر لما قلناه" [8].

1. **<u>منهجية بن شنب في توثيق الأمثال</u>**: يحوي مصنّف العلاّمة محمّد بن أبي شنب على3127 مثلا، وقد طبع لأول مرّة ما بين سنوات 1905 و1907 بباريس في ثلاثة أجزاء، وهو يعدّ المصنّف الأول من نوعه للأمثال العربية كونه ثنائي اللّغة (عربي/فرنسي).وقد بذل المؤلف جهدا جبّارا وشاقا في مصنّفه حول الأمثال الشعبية حيث اعتمد فيه منهجية محكمة، إذ كان يورد الأمثال العامية مرقمة ومرتبة ترتيبا أبجديا ثم يقوم بترجمتها إلى اللّغة الفرنسية مع إيراد شروحات وتعليقات عليها، كما كان

يقيم بعض المقارنات بين هذه الأمثال التي جمعها وأمثال أخرى في بعض اللهجات العربية والأجنبية، وكذلك بما ورد في كتب التراث العربي من أمثال: مجمع الميداني أو جمهرة أبي هلال العسكري...الخ، ويستشهد ببعض الأبيات الشعرية العربية أو الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة التي لها علاقة بمعاني هذه الأمثال ، كما راعى المؤلف حتى التنوعات اللهجية داخل الدارجة الجزائرية في حد ذاتها من خلال إيراد المناطق التي يُتداول فيها المثل، وقد حاول أن ينظم الأمر للقارئ حتى يسهل عليه معرفة المناطق الجغرافية التي يتداول فيها المثل من خلال استعمال رموز مفتاحية فاستعان بحروف فرنسية كبيرة حيث جعل كل حرف منها يدل على المنطقة التي يتداول فيها هذا المثل وكذلك الفئات التي تستعمله وهذه الرموز نوردها كما يلي: [9]

.2

مســـــتعمل مـــــن المثقّفـــــين والمتعلّمين:L

مجموع ومسموع من المدية :M

مجموع ومسموع من الجزائر العاصمة : A

مستعمل في قسنطينة والقطاع الشرقي: C

مستعمل في وهران والقطاع الغربي : O

مستعمل في الجنوب والهضاب العليا: S

يشير المؤلف إلى إنّه ركّز على الأمثال التي سمعها من منطقة المدية والجزائر العاصمة بحكم نشأته في المدينة الأولى باعتبارها مسقط رأسه واستقراره واشتغاله بالمدينة الثانية (حيث كان يسكن بسانت أوجين

– بولوغين حاليا-غير أن هذا لم يمنعه من الاطّلاع على أمثال أخرى من مختلف مناطق الوطن بحكم مهامه العلمية وسفرياته المختلفة.

لقد قام بن شنب ببحث ومسح معمّقين في كتب التراث وكتب المعاصرين له من عرب وأجانب في مجال الأمثال حيث أننا عندما ننظر إلى ببليوغرافية الكتاب نعثر على طائفة كبيرة من المراجع والمصادر – وبمختلف اللّغات- ونذكر مثلا من بين هذه المراجع :

- كتاب السفينة الدائرة بالأمثال السائرة لبشارة نصر الله حاتم
- أمثال المتكلمين من عوام المصريين لمحمود أفندي الباجوري.
- كتاب أمثال العوام في مصر والسودان والشام لنعوم شقير.
- كتاب نظم اللآل في الحكم والأمثال لعبد الله فكري باشا .
- كتاب ضروب أمثال عثمانية لشينازي أفندي.

بالإضافة إلى قائمة كبيرة من الكتب باللّغات الأجنبية دون أن نغفل عن كتب التراث كمجمع الميداني وجمهرة أبي هلال العسكري...الخ. وقد ألحق المؤلف كل جزء من كتابه بملحق يضم بعض التصويبات المطبعية والشروحات المستدركة.

وهكذا تتبع كتب الأمثال القديمة والمعاصرة – بمختلف اللّغات – ودقق في أبوابها ليقيم مقارنات بينها وبين الأمثال الجزائرية ليستخرج الأشباه والنظائر ومن هذه النظائر ما يتفق معنى ولفظا ، وما يتفق معنى دون اللفظ، وبهذا لم يكن هدفه جمع الأمثال الجزائرية فقط بل حاول أن يقيم مقارنات بينها وبين أمثال أخرى حيث يقول بهذا الصدد: «لا يهدف هذا العمل فقط إلى جمع الأمثال الموزعة في عدد من الأعمال وإضافة بضع مئات منها فالمؤلف لم يكتف بتصنيفها وفقا للحروف الأبجدية لتسهيل البحث، بل قام بترجمتها مرفوقة بالشروح بغرض بيان استعمالاتها، والبحث لبعضها عما يعادلها خاصة بالفرنسية ....وأشار إلى

ما يوازيها في الأمثال التي توجد في مصر وسوريا وبيزنطة والجزيرة العربية وبين منها ما هو مستعار مباشرة أو بصفة غير مباشرة من القرآن ومن الحديث النبوي ومن المجامع الشهيرة للأمثال الأدبية للميداني والعسكري».[10]

3. **القيمة الحجاجية واللغوية للأمثال الشعبية**: لقد أدرك ابن شنب أهميّة الأمثال الشعبية، حيث تكتسب هذه الأخيرة قيمة أنثروبولوجية وتوثيقية كبيرة للجماعة التي تتداولها، وكان الناس يستدلون بها على ثقافة المتحدث بكثرة ما يورد منها فيكون محل تقدير واحترام، كما أن المثل المواتي المراعي لمقتضيات الحال قد يكون سببا في حل نزاع أو عقد صفقة أو إسكات ثرثار أو تفنيد حجة...الخ ، فيراعي المتكلم المقام الذي يصاغ فيه الكلام لأن المقامات مختلفة ومتعددة، ويوضح السكاكي هذا الأمر قائلا: « لا يخفى عليك أن المقامات متفاوتة فمقام الشكر يباين مقام الشكاية ومقام التهنئة يباين مقام التعزية ، ومقام المدح يباين مقام الذم ، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب ومقام الجدّ يباين مقام الهزل »[11]

إذن إنّ المقام يساعد على التواصل وإفهام المخاطب وتحقيق المطلوب حيث إن "المعاني تتحول في مقامات التخاطب إلى مقاصد"[12].

وتستمدّ هذه الأمثال الشعبية قوّتها الكبيرة من السلطة المرتبطة بالجماعة فالأمثال صوت الأجداد ولهذا كثيرا ما كان يلجأ المداحون في الأسواق االعامّة إلى محاولة جلب الناس إلى حلقاتهم عن طريق الأمثال الشعبية التي يحفظونها قبل أن يشرعوا في رواياتهم للقصص والسيَّر والأشعار.

ومن ناحية أخرى تظهر بصمات التلفّظ واضحة على الملفوظ به في تحديد شكله أو توجيه معناه، فالمتكلّم يتلفظ بشيء يفترض إنّه يناسب

وضعية معينة والمتلقي عليه أن يدرك السياق حتى يكون قادرا على تأويله، وتؤدّي الحركات الجسدية ونغمات الصوت والتنبير دورا تأثيريا مهمّا في هذا المجال فالعبارة "أحسنت" قد تعني معنى الاستحسان إذا صاحبها ما يدلّ على ذلك من تصفيق أو شيء من ملامح الوجه كما قد تدلّ على السخرية والاستهزاء إذا خوطب بها مصاحبة مع إمالة الصوت أو هزّ الرأس، كما قد تحمل دلالة التوبيخ ممزوجا بالغضب ...الخ. وهذا الأمر نجده واضحا عند التلفظ ببعض الأمثال الشعبية لأن له دور كبير في التأثير على السامع واستيعاب دلالة المثل فالمثل القائل:**" عَنْدْ الدَّيْنْ يْبَانْ الدِّينْ"** فتشديد حرف الدال في الكلمة الأولى منحها معنى متميزا عن الكلمة الأخرى غير المشددة، وهذا الأمر نكتشفه من خلال النطق والتنبير لأنّ الأمثال الشعبية تعتمد الشفاهية وعن طريق النبر فرّقنا بين معاني الكلمات، وكذلك الأمر بالنسبة للاستبدالات حيث نلاحظ تطويلا في المثل الشعبي القائل: **"إذا حَبَّكْ القْمَرْ بَكْمَالُو، وَاشْ عْليكْ مَنْ النّْجُومْ إذَا مَالُو"** وهذا التطويل ليس اعتباطيا بل له دلالة مهمة وارتباط بمعنى المثل ودلالته أوفي المثل القائل:" **الجَنّة فَنْدَقْ غَيرْ أَرْوَاحْ وادْخُلْ"، اللّي مَا عَنْدُو قَلْب يَتْعزَّى فِيهْ، هْنَا يْمُوتْ قَاسِي، إذا عَنْدَكْ كثيرْ أعْطِ مَنْ مَالَكْ وإذا عَنْدَكْ قْليلْ أعْطِ مَنْ قَلْبَكْ، ثْلَاثَة عَدْيَانِي:عَيْنِي ووذْنِي ولْسَانِي لُوكَانْ مَا هُومَا نَدْخُلْ قَبْرِي هَانِي، واشْ أدَاكْ يالحَجْلَة؟ وواشْ رَدَكْ بَالعَجْلَة؟....** فالمعنى- بصفة عامّة - في هذه الأمثال لا يمكن أن يكون بمعزل عن علاقة الأمر بالمتكلم ومقاصده والسامع وكذلك الموقف الذي يجري فيه الكلام .

وتهدف الأمثال إلى محاولة تكريس سلوكيات معيّنة والتنفير من سلوكيات أخرى كما تعمل على تمرير بعض المعارف الاجتماعية عبر

وسائط جمالية، وتبقى لهذه الأمثال فعّالية في الحاضر رغم ارتباطها بالماضي فهي تمثل أفعال إنجازية حيث هناك قصدية إنجاز الفعل فالمتكلم يهدف إلى التأثير على المستمع وحمله على التحلّي بسلوك معين أو النهي عن أمر غير مستحب **مثلا: " انْسَى الهَمّ يَنْسَاكْ- بَاتْ بْلاَ لْحَمْ تَصْبَحْ بْلَا دَيْنْ – اخْدَمْ بصُورْدِي وحَاسَبْ البَطَّالْ- احْفَظْ المِيمْ تَحَفْظَكْ- اخْسَرْ وفَارَقْ- عَسْ دَارَكْ ومَا تْسَرَّقْ جَارَكْ".....الخ**

ويعدّ أسلوب السخرية من بين الأساليب المهمّة التي تعتمدها الأمثال الشعبية الجزائرية باعتبارها وسيلة للتعامل مع الواقع وانتقاد للأوضاع مما يجعله مرتبطا بالسياق والتأويل لأن السخرية تربط بين الخاصيّة التداولية والدلالية، فبالنسبة للعلاقة الدلالية هناك مثلا علاقة بين معنيين أحدهما ظاهر والآخر مضمر وبين المعنيين تضاد وتعارض –ازدواجية المعنى- بينما بالنسبة للتداولية فيستلزم حضور القصدية لأن هناك غاية أو مقصد يرمي إليه المتكلّم.

هناك تهكم في المثلين: **" آشْ يْخُصَكْ يَا العَرْيَانْ ؟ يْخَصْنِي الخْوَاتَمْ يَا مُولاَيْ، تْهَنّينَا مَنْ طُلْبَة الشنّين**(الحليب المضاف له الماء) **أشْرِينَا عَتْرُوسْ"**، عن الحالة الطارئة بأنّها أسوأ من الحالة التي قبلها، والتعارض يفهم من خلال السياق ويدعمه أكثر السياق الصوتي الذي يوضح المثل ويثير إشارات ودلالات معينة .

كما نجد في الأمثال استعمالا مراوغا للغة فيه إضمار والمستمع يستنفر كفاءاته اللسانية والمعرفية للوصول إلى المخفي، لأن هذه الملفوظات تبدو ملتبسة تقول عكس ما تضمر: **"هَذَاكْ مَا كُنَّا نَبْغُو للأحْبَابْ، مْنِينْ كَانْ حَيْ مَشْتَاقْ تَمرّة وكِي مَاتْ عَلْقُولُوا عَرْجُونْ، مْنِينْ يَنوّرْ المَلْحْ، عْلَى زينكْ وكْحَالْ عَينَكْ، أَجِي يَا يَمَّا نْوَريلَكْ دَارْ بَابَا، أعْطِ**

الدّوَارَة لَلْقَطْ يَغْسَلْهَا والغْنَمْ للذِّيبْ يَسْرَحْهَا، تارِكْ الصلاة يْقُولْ بَابْ الجَامَعْ مَغْلُوقْ".....الخ

فتنطوي السخرية على المضحك والمبكي في آن واحد لأنّها تعتمد أساسا على التعارض والصراع ولهذا فهي تتطلّب تأويلا مضاعفا تتمّ فيه مراعاة البنية اللغوية والخلفيات النفسية والمعرفية.

وتكشف- بدورها- التغيّرات اللهجية والمؤثرات التعبيرية في الأمثال الشعبية عن شخصيات المشاركين في الخطاب، وقد أشار ابن شنب إلى بعض التغيرات اللهجية لبعض الأمثال التي جمعها في مصنّفه (مثلا بين اللهجة العاصمية وبعض لهجات المناطق الجنوبية والداخلية) فنلاحظ ورود صيغة التصغير في بعض الأمثال العاصمية:

- **القْطِيطَة مَاتَتْ اتّسْعُوا الفِيرَانْ.**
- **مَا بْقَى فِي الْزنِيقَة غِيْر بُوعْنيقَة.**
- **مْنينْ ذِيكْ الورِيقَة مِنْ هَديكْ الشْجِيرَة.**
- **إذا عَادُو الخْطيوَاتْ أكْثَرْ مَنْ اللْقِيمَاتْ لاَبَارَكْ فِيهُمْ.**

وكذلك لدى العاصميين طريقة في نطق بعض الحروف كنطق الضاد طاءً كما في المثل:" **رَدْ غَيطُه (غيظه) عْلَى بَيطُه (بيضه)**، أو نطق الثاء تاءً: **الزْمَان طْويلْ والبْقْرَة عَتّارَة(عثّارة)**. أما فيما يخصّ اللهجات التي تسود جنوب البلاد فنجد أيضا بعض الخصائص كنطق الغين قافا: **الحْصيدَة ولت قبّار(غبّار) وَيْحَكْ يَاربّاحْ العَارْ**، أو نطق القاف كافا : **النَّايْلي اكْتلَه (اقتله) قبل مَا يتكلمْ** .أو استعمال بعض المفردات الخاصّة كما في الأمثلة التالية:

- **ما نغزّ البصلْ ما نَحْصَلْ**

- **بُطْ النّسَا بَالنّسَا مَاشِي بَالعْصَا**
- **أنا نْخَشَشْ بالقُفَة وهي تْخَرَّجْ بالزَنْبِيلْ**
- **شَاوْ النّهَارْ رْفِيقْ**
- **فْلَان تْعَرَّضْ كزَيدْ قْدَحْ(قوس قزح)**
- **قَدَّمْ ياالثَّعْلَبْ خَنْشُوشَكْ طْوِيلْ**
- **مَايَدْرِي بَالمَزْوَدْ غَيْ اللّي تْبَطْ بِيهْ.**

فمستعمل اللّغة في بيئة معينة لابد أن يراعي عرف البيئة التي يوجد فيها من أجل أن يحقق مقصده من عملية القول وحتى يشعر السامع بارتياح أكبر، ولقد منحنا هذا المصنّف ثروة لغوية مهمة يستطيع الدارسون من خلالها التعرف على اللّغة الدارجة المستعملة في الجزائر خلال النصف الأول من القرن العشرين.

وقد أبدى الرّجل بعض الملاحظات على المدونة التي نشرها إذ أن أغلب الأمثال تتشكل من عدد محدود من الكلمات كما أن لغتها تقترب من الفصحى تختفي منها فقط علامات الإعراب مثلا:

- **الصَّابَرْ ينالْ**
- **الخَمرْ مَفْتَاحْ كُلْ شَرّ**
- **المْحَبّة المَزْرُوبَة لا بُدّ مَنْ العقُوبَة**
- **صَاحْبَكْ قَابْلُه وعْدُوكْ جَانْبُه**
- **صْدُورْ الأَحْرَارْ قْبُورْ الأَسْرَارْ**

كما أورد بعض الرباعيات الشّعرية التي شاعت حتى أصبحت أمثالاً متداولة بين الناس مثل رباعيات عبد الرحمن المجدوب (**)، فرغم طول

هذه الرباعيات إلا أن إيقاعيتها وبنيتها الموسيقية المعتمدة على التكرارات والاستبدالات أسهمت بشكل كبير في حفظها وتداولها بين النّاس . من بين هذه الرباعيات نذكر الأمثلة التالية:

لا تْسَـــــرَّجْ حَتّـــــى تْلجَّـــــمْ واعْقَـــــدْ عَقْـــــدَة صْـــــحِيحَة
لا تَـــــتْكَلّمْ حَتّـــــى تْخَمـــــمْ لا تْعُـــــودْ لَـــــكْ فْضِـــــيحَة

أو الرباعية المشهورة:

لا يَعْجْبَـــــكْ نَـــــوّارْ الـــــدَفْلَى فِـــــي الـــــوَادْ دَايَـــــرْ ظْلَايَـــــلْ
ولا يَعْجْبَـــــكْ زِيـــــنْ الطّفْلَـــــة حَتـــــى تْشُـــــوفْ الفْعَايـــــلْ

أو قوله:

ثْلَاثَـــــة يْشَـــــيْبُو المْـــــرُو مَشْـــــيْ الليـــــلْ بـــــلا رفيـــــقْ
وخَلْـــــيْ المَـــــزْودْ مَـــــنْ الـــــدقيقْ ومُـــــوتْ الخُـــــو الشْـــــقِيقْ

وقوله في رباعية أخرى:

الزّيـــــتْ يَخْـــــرُجْ مَـــــنْ الزَيْتُونَـــــة والفَـــــاهَمْ يَفْهَـــــمْ لُغَـــــة الطَّيـــــرْ
لِـــــي مَـــــا تُخْـــــرَجْ كَلْمتُـــــه مَوْزُونَـــــة يَحْجَبْهَـــــا فِـــــي ضْـــــميرُو خِيـــــرْ

يأتي اهتمام الرّجل بالأمثال لاعتبارها عنصرا مهما تستخدمه جميع فئات المجتمع، وبهذا فهي تعمل على توحيد الوجدان والطبائع والعادات، كما ينظر إليها على إنّها وثيقة تاريخية واجتماعية هامّة تمكننا من قراءة أخلاق المجتمع وعاداته وطرق تفكيره وفلسفته في الحياة حيث يقول الباحث المصري أحمد أمين بهذا الصدد: "أمثال كل أمّة مصدر هام جدا للمؤرخ الأخلاقي والاجتماعي يستطيع كلّ منهما أن يعرف كثيرا من أخلاق الأمة وعاداتها وعقليتها ونظرتها إلى الحياة لأنّ الأمثال عادة وليدة البيئة التي نشأت منها "[13]

وفي الأخير نقول إنّ مصنّف محمّد بن أبي شنب جهد جبار يدل على موسوعية الرّجل التي شهد له بها العرب والأجانب، كما يدّل على روحه الوطنية والتي جسّدها من قبل من خلال تمسكه بلباسه التقليدي الأصيل حتى وهو يشارك في مختلف المحافل العلمية والدولية فكان بذلك سفيرا حقيقيا للثقافة الجزائرية العربية (شكلا ومضمونا) لا الثقافة الغربية الفرنسية، وليس أدل على هذا الأمر من تركيز الرّجل على التراث العربيّ والإسلامي في كل أبحاثه ودراساته، وقد حاول بن شنب قدر الإمكان الابتعاد عن بؤر السياسة حتى لا يتعرض عمله الثقافي إلى عوائق وضغوطات من السلطات الاستعمارية لأنّه يدرك جيدا أن العمل الثقافي هو الكفيل بتغيير أوضاع شعبه نحو الأحسن ويساهم في الحفاظ على هويته الأصيلة .

ولكن للأسف الشديد فإن مصنّف أمثاله أصبح نادرا إذ أنّ كلّ طبعاته على حد علمي قد طبعت بفرنسا فلا يستطيع القارئ الجزائري العادي أن يتحصل عليه حتى في المكتبات المتخصصة، وكذلك لا بد من إعادة تحقيق هذا المصنّف لأن خطه المغربي القديم الذي رسمت به حروفه يطرح بعض الصعوبات في القراءة بالنسبة للجيل الجديد غير المتعود على هذا الخط.

لقد آن الأوان لمنح محمّد بن أبي شنب المكانة المستحقة واللائقة من خلال الاهتمام بتراثه جمعا ونشرا وتحقيقا وتخصيص الرسائل الجامعية حول إنتاجاته الغزيرة والمهمّة.

الهوامش:

[1]- أحمد أمين ، قاموس العادات والتقاليد و التعابير المصرية، لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة،1953 ، ص61

(*)- محمد بن شنب (1896- 1929) ولد بعين الذهب بولاية المدية في أسرة ميسورة الحال، حفظ القرآن الكريم ثم التحق بالمدرسة الفرنسية، درس بمدرسة المعلمين ببوزريعة ، ونال درجة الدكتوراه من قسم الأدب العربي بجامعة الجزائر، كان رجلا واسع الاطلاع يجيد عدة لغات أجنبية ، عيّن في سنة 1924 استنادا رسميا بجامعة الجزائر وشارك في المؤتمر الدولي السابع عشر للمستشرقين بأوكسفورد بإنجلترا عام 1928حيث التقى عددا من أساتذة جامعة السوربون وكذلك بعض الباحثين العرب كطه حسين ومحمد كرد علي...الخ(للمزيد عن حياة العلامة محمد بن شنب ينظر: عبد الرحمن الجيلالي، محمد بن أبي شنب وآثاره، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1983).

[2]- عبد الرحمن الجيلالي، محمد بن ابي شنب وآثاره، ص 28.

(**)- محمد كرد علي(1876- 1953): من مؤسسي المجمع العلمي العربي بدمشق سنة 1919 كانت له مراسلات مع العلامة محمد بن أبي شنب.

[3]- محمد كرد علي، المعاصرون، دار صادر، ط2، بيروت 1993، ص341.

[4] -M. Ben Cheneb , Proverbes de l'Algérie et du Maghreb, Maisonneuve et la rose, Paris 2003 .

[5]- انظر: عبد الحميد بورايو، الأدب الشعبي الجزائري، دار القصبة للنشر، الجزائر 2007، ص 9 .

[6]- انظر: عبد الحميد بورايو، في الثقافة الشعبية الجزائرية – التاريخ القضايا والتجليات، منشورات رابطة الأدب الشعبي لاتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر 2006، ص 79 .

[7] - M. Ben Cheneb, Proverbes de l'Algérie et du Maghreb وقد اعتمدت على الترجمة التي أنجزها د/ عبد الحميد بورايو لمقدمة (introduction) الكتاب.

[8] - المرجع نفسه، المقدمة.

[9] . -cf. M.Ben Cheneb, Proverbes de l'Algérie

[10] - M. Ben Cheneb, Proverbes de l'Algérie et du Maghreb (introduction

- السكاكي(أبو يعقوب)، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية ، لبنان، 1983، ص168.[11]

[12]- محمد محمد يونس علي، ، المعنى وظلال المعنى: أنظمة الدلالة في العربية، دار المدار الإسلامي، ط2، بيروت 2007، ص 09.

(**)- الشيخ عبد الرحمن المجذوب: هو الشيخ أبو زيد عبد الرحمن المجذوب بن عياد بن يعقوب بن سلامة الصنهاجي الدكالي المتوفى سنة 976هجرية وقد لُقب بالمجذوب وعرف بهذا اللقب، كان صوفيا زهد في الدنيا وساح في البلاد للوعظ والإرشاد (للمزيد ينظر: الشيخ نور الدين عبد القادر البسكري، القول المأثور من كلام الشيخ عبد الرحمن المجذوب، تقديم وتعليق: عادل بن حاج الجزائري، دار هومة ط2، الجزائر 2010، ص69)

[13]- أحمد أمين ، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، ص61